ثم يقول الله تعالى في آخر آية من السورة:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

[رقم الحلقة على القرص المدمج: ٨٠]

تَصِلُ بنا هذه الآيةُ أخي المؤمن إلى نهايةِ سُورةِ يوسفَ عليه السلام، وهي تحملُ وصفاً جامعاً شاملاً للقرآن الكريم تَنْطَلِقُ مِنْ جُزئيةِ القَصَصِ الواردِ فيه إلى كُليةِ الهُدى والرحمة، وهي بذلك تَنْدَرِجُ ضمنَ الآياتِ الكُليةِ في القرآن الكريم.

فلنبدأ بتأمُّل الآيةِ الكريمة.

يقولُ الله تعالى: **﴿لقد كانَ في قَصصِهم عِبرةٌ لأولي الألباب﴾**.

في هذا الشَطْرِ من الآية، لطائفُ عدة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لهذا التناسُقِ التامِّ بينَ آيات السُّورةِ الواحدة، ثم التّناسُقِ التامِّ في كُلِّ سُوَرِ القرآن الكريم، فبالعودةِ إلى بدايةِ سُورةِ يُوسُف، نقرأُ في الآيةِ الثالثة: **﴿نَحنُ نَقُصُّ عليكَ أحْسَنَ القَصَصِ بما أوحينا إليكَ هذا القرآن﴾**[1].

وفي آخر السورةِ نقرأ: **﴿لقد كانَ في قَصَصِهم عِبرةٌ لأُولي الألباب﴾**، فإذا بميزانِ التّوازُنُ يَكْتَمِلُ ما بينَ بدايةِ السُورةِ ونِهايتِها، وكُنّا قد رَأينَا كيفَ أنّ الوِعاءَ الكبيرَ قدِ اكتَمَلَ بعدَ أن اكتَمَل الوِعاءُ الأصغرُ.

فسبحانَ الله العظيمِ الذي جعلَ في القرآنِ الكريم الآيةَ الكُبرى لمَنْ كانَ له قلبٌ أو أَلقى السَمْعَ وهو شهيد.

---

(١) [سورة يوسف، الآية: ٣].

اللطيفةُ الثانية: في وقُوفِنا عندَ كلمةِ ﴿قَصَصِهِم﴾: فما وَرَدَ معَنا على مَدارِ السُّورة، هي قِصَّةٌ واحدة، قِصةُ يوسفُ عليه السلام، لكنّ هذه القِصة، بما تَحْويهِ مِنْ وَصْفٍ دقيقٍ لِتَقَلُّباتِ حالِ النّفسِ الإنسانية، مَلأى بالقِصَصِ الفرعية، كلُّ قصةٍ مِنْها تُظْهِرُ جانباً مِنْ جوانبِ حياةِ الإنسانِ، وتفَاعُلَهُ معَ الأحداث، وكم وَقَفْنَا مِنْ وَقَفَاتٍ معَ يعقوبَ عليه السلام، وهو يُقاوِمُ رَغبَةَ أبنائه بانتزاعِ ابنهِ منه، ثم يبينُ شعورَه، بعدَ فقدِه، ثم صَبْرَه على الفَقْد، ثم انشغالَه بتأمينِ القُوت، ثم رَفْضَهُ تَكْرَارَ التجربَةِ مع الابنِ الأَصغر، ثم اشتدادَ الضّغطِ عليه، ثم قبولَ الانتزاعِ الثاني، ثم اشتدادَ الأزمةِ بِفقْدِ الابنِ الثاني، ثم تَجُدُدَ الأَملِ بعودةِ الغائبينَ، ثم مجيءَ البشير بقميصِ يوسفَ عليه السلام، ثم اجتماعَ الشَمْل.

هذه قصةُ أُولى تُواكِبُها قِصةُ الأبناءِ في تَقَلُّبهم وتَغَيُّرِ أحوالِهم ونَراهُمْ يأتمِرونَ بيوسفَ عليه السلام، ثم يَنْطَلِقُونَ في تَصَرُّفٍ عَمَلِي يَتماشَى معَ تبييتِ نِيَّةٍ وإظهارِ عَكْسِها، ثم يتَصاعَدُ فِعْلُهم بتركِ يوسفَ عليه السلامُ في غَيابَاتِ الجُبّ، ثم مَشْهَدُ التمثيلِ وإظهارِ الحُزْنِ، ثم بقاءُ أمرِ مَصيرِ يوسفَ عليه السلامُ مُعَلَّقاً في حَقِّهم، ثمَّ إحصارُ ضِيقِ القُوت، ثم السعيُ إلى مِصْرَ لإحضارِ الطعام، ثم سُقُوطُهم في خُيوطِ خُطَّةِ يوسفَ عليه السلام، ثم تفَاعُلُهم دونَ مَعرفةٍ منهم معَ خُطَّتِه، ثم شِدَّةُ تَعَلُّقِهم بتنفيذِ خُطَّتِه بإحضارِ الأَخِ الأصغر، ثم تَلَبُّسُهم بحُكْمِ استرقاقِ السَارِقِ، ثم وقوعِ هذا الحُكمُ بهم، ثم اشتدادُ الضِّيقِ والإحصارِ عليهم، ثم بَدْءُ التحوُّلِ الجَذْرِيِّ في قواعدِ تَصَرُّفِهم، ثم الارتقاءُ إلى مرتبةِ التضْحِية، ثم عناءُ الانتقالِ المَكُّوكِيِّ، ثم شعورُ الانكسار، والاعترافُ بين يديَ يوسفَ عليه السلام، ثم سعادةُ اجتماع شَمْلِ العائلة.

وبالتوازِي معَ هاتين القِصَّتين، كُنّا نَسيرُ مع قصَّةِ يوسفَ عليه السلام حينَ

كانَ فتىً غَضّاً طَرِيّاً وقد انتُزِعَ بقَسوةٍ مِنْ حِضْنِ وحنانِ وعاطفةِ أبيه، وأُلقي في غَياباتِ جُبٍّ مُظلم، في صحراءَ مُوْحِشَة، ثم تَنَقُّلُهُ بينَ أيدي التُّجَار، ثم اختلاطُه مع العبيد في أسواقِ العبيد، ثم انتقالُه إلى بيتِ عزيزِ مِصْر، ثم الفِتنةِ واتهامُ الظُلْم، ثم اشتدادُ طَوْقِ الفِتنة ثم سِجْنُ الظُلم، ثم تأويلُ الرُّؤَى، ثم اللَّبْثُ في السِجْنِ بِضْعَ سِنينَ مَنْسِيّا، ثم تَحرُّكُ الأحداثِ بسرعةٍ مع رؤيا الملك، ثم الاندفاعُ الهائلُ نحوَ القمّة، ثم حياةُ السياسة والدِّرَايَةِ والحُنْكَةِ والاقتصاد، ثم تَرصُّدُ مجيء الإخوة، ثم إطلاقُ الخُطّةِ الصعبةِ المُعَقّدةِ المُحْكَمَةِ، ثمّ الرِّضى بحُسنِ سَيْرِها، ثم لقاءُ الأخِ الأصغرِ، ثم إرسالُ الإشارات إلى الأبُ الحزين، ثم الصَبْرُ حتى يَبْلُغَ الإخوةُ كاملَ النّقاءِ والصّفاءِ الذي يَرْجُو، ثم إرسالُ البشيرِ إلى الأب، إيذاناً ببدءِ انتهاءِ المِحنةِ، ثم اجتماعُ الشمل أخيراً.

الآن نفهمُ معنى قولِ الله تعالى: **﴿لقد كانَ في قَصَصِهم عِبْرَةٌ لأُولي الألباب﴾**.

اللطيفة الثالثة: في تأمُّلِنا لقولِ الله تعالى: **﴿لأُولي الألْباب﴾**، وما أجملَ التعبيرَ القرآنيّ في مُخاطبةِ الإنسان مع ما يَحْمِلَهُ هذا التعبير مِنْ غزيرِ المعاني:

فهو يقولُ لنا: إن شَرَف تأمُّلِ وتَدَبُّرِ آي القرآن الكريم، يَحُوزُهُ مَنِ ارتقى إلى درجةٍ رفيعةٍ في الإنسانية، وحَصَّلَ لَقَبَ أُولي الألباب.

وهو إذ يُشَرِّفُنا بِحَمْلِ هذا اللَّقب، يَحُثُّنا على العمل به، فنعملُ العقلَ في الفَهْمِ والوعي، ومراكزِ العَرْضِ في المُقارَنةِ والمُقابلة، ومراكزِ الذّاكرة في الاسترجاعِ والتَّعَقُّب، ومراكزِ العاطفةِ في التَّمَتُّع والتذوُّق،ومراكزِ الحِفْظِ في الترتيبِ والتنسيق، ومراكزِ الحواسِّ في الالتقاطِ وجَمْعِ المعلومات، ثم نَسْكُبُ كُلَّ ذلك على القَلْب، حتى تُلَيِّنَ قَسْوَتَه، وتُذْهِبَ بأسَهُ، وتَرْفَعَ مِنْ درجةِ إيمانِهِ.

ثم يقولُ الله تعالى: **﴿ما كانَ حديثاً يُفْتَرى ولكنْ تَصدِيقَ الذي بينَ يديهِ وتَفْصيلَ كُلِّ شيءٍ وهُدَىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون﴾**.

في هذا الشطرِ منَ الآيةِ، لطائفُ عِدّة:

اللطيفة الأولى: في ملاحظتِنا لهذا التدَرُّج الرائعِ في وَصْفِ القرآنِ الكريم، **وذلك على خَمسِ مراحل:**

المرحلةُ الأولى: في إثباتِ أنه مِنْ عندِ الله تعالى.

المرحلةُ الثانية: في أنه ما جاءَ لِيَنْقُضَ الكُتُبَ والرِسالاتِ الإلهيةِ السابقةِ عليه، بل جاءَ لِيُؤَكِّدُها.

المرحلةُ الثالثة: أنه الكتابُ الجامعُ الشامِل.

المرحلةُ الرابعة: أنّ فيه الهُدَى إلى الصراطِ المستقيم.

المرحلةُ الخامسة: أنه الرحمةُ مِنَ الله تعالى إلى النَّاسِ.

اللطيفة الثانية: في لَحظِنا لهذا الإعجازِ في الإيجازِ، بقولهِ تعالى:

﴿ما كانَ حديثاً يُفْتَرى ولكنْ تصْدِيقَ الذي بينَ يديه﴾.

وقد عَلِمْنا أنّ المُشرِكينَ في مكة، كانُوا قد تَألّبُوا مع اليهودِ ضِدّ أشرف الخلق وحبيب الحق رَسولِ الله ﷺ في صراعٍ مريرٍ يائس يُحاوِلُونَ بكُلِّ وسائلِ المَكْرِ والتكذيب، صَدّ النَّاس عَنْ نورِ الهِدَاية.

فقالَ المشركون: إنه شاعرٌ مجنون، وقالُوا: أصابَه مَسّ، وقالوا: هو يُصْرَعُ فيَهْرِف، وقالوا: تُعَلِّمهُ الجِنّ، وقالوا: طامعٌ بالرياسة، طامحٌ للسيادة، وقالوا: طَموحٌ يُحِبُّ المالَ وهو فقير.

وقال اليهود: إنما جاءَ لِينْقُضَ التورَاةَ والإنجيل، وكُلّ الكُتبِ والرِسالاتِ الإلهية، ليأتِي بشيءٍ مِنْ عِندِه لا يتَوافَقُ مع هذه الكُتبِ والرِسالاتِ.

فأتتْ هذه الكلماتُ الوجيزة في هذه الآيةِ لِتَكُمَّ أفواهَهَم وتُظْهِرَ كَذِبَهم، وتفْضَحَ تَحْرِيفَهُم، وتُؤَكِّدَ على وَحدَةِ الرسالة على مَرِّ الأزمان، وعلى أُخُوَّةِ الأنبياءِ والمُرْسَلين الكِرام.

اللطيفة الثالثة: في وقوفِنا عندَ جماليَّةِ وَصْفِ القرآنِ الكريم، الذي معَهُ تنْتَهِي سُورةُ يوسف، بقولِ الله تعالى:

﴿وتفصيلَ كُلِّ شيءٍ وهُدىً ورحمةً لقومٍ يؤمنون﴾.

وكم نَشْعُرُ بالسعادةِ والحُبور، حين نَعْرِفُ أنّ القرآن الكريم جاءَ لنا سَكَناً وطُمَأنِينةً وسلاماً، وحين نَسْمَعُ أنه تَفْصيلٌ لكلِ شيء.

فلم يَدَعِ الله تعالى لنا أمراً مُعَلَّقاً أو مُبْهَماً، وجاءَ الدِّينُ كاملاً مُكَمَّلاً، نَقِياً واضحاً سَلِساً يَسِيراً، مُرْشِداً مُنْجياً.

فكان هدى ونوراً، وعلماً وعملاً، راشداً مرشداً.

وهو فوقَ كُلِّ شيء: **﴿رحمةٌ لقومٍ يؤمنون﴾.**

فأيُّ خيرٍ يَرْجُو مَنْ أَعرضَ عَنه ونأَى؟

أسألُ الله العظيم، ربي وربَّ كُلِّ شيء، أن يَجعَل القرآن الكريم ربيعَ صُدُورِنا وأن يَجْعَلَهُ لنا إماماً ونُوراً وهُدىً ورحمة.

وأسألَهُ أنْ يجعلَ عَملي هذا خَالصاً لوجهِ الكريم، وأنْ ينفَعَ به كُلّ مَنِ استمعَ وقرأ هذه اللطائفَ منْ سورةِ يوسف.

مواطن الإسترشاد بالآية في الحياة اليومية:

١ - للدلالة على أن الإسلام حوى كل الشرائع، بما فيها شريعة إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، ولم يأتِ لينقض الشرائع السابقة بل دعا الناس جميعاً إلى التنعم بتمام الدين وكمال الشرع في الإسلام وهو الذي يجعل اتباعه أقوياء أعزاء بدعوتهم لجميع الخلق للإنظمام إليه، فهو يحب الجميع، ويريدهم جميعاً معه إلى الفلاح والنجاة، والأسف كل الأسف على من تخلف عن اللحاق بركب الخلاص، ولن ينفعه الندم حين يرى الحقيقة.

٢ - للدلالة على أن القرآن الكريم حول كل العلوم وفصّل كل شيء وهو الكتاب الوحيد الباقي إلى يوم الدين، بحر من الكنوز والمعارف والعلوم والفنون، والشرع والفقه، والعبر والقصص، وأخبار الأمم الغابرة، والأنباء عن أحوال الآخرة، وأنه لنعمة كبرى، أنعما الله تعالى علينا، والسعيد حقاً هو من أدرك عِظَم هذه النعمة.

فالحمد والشكر والثناء لله تعالى العظيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *